

السبت 31-05-2008

274- لكن سيبدو قومه المتخابي !!

سألتني مذيعة الإذاعة البريطانية عن مفهوم الغباء بمناسبة إعداد برنامج عن حركة مصرية جديدة سمت نفسها "مواطنون ضد الغباء"، فابتسمت ولم أرد على الفور، ولم أعرف كيف رأت ابتسامتي لأن السؤال كان عبر الهاتف، ذلك أنها أكملت وهي تضحك هل لا يوجد تعريف للغباء، قلت لها إن كثيرا من معاجم اللغة العربية الأصيلة تعرف الشيء بضده، فيمكن أن نقول إن الغباء هو ضد الذكاء، قالت فما هو تعريف الذكاء، ثم مضى الحديث خفيفا طريفا حتى وصلنا إلى النقطة التي تريدها وهي تسألني عن رأيي في هذه الحركة المسماة "مواطنون ضد الغباء"، فشرحت لها وجهة نظري من أن موجة ابتداء مثل هذه الحركات ليست فاعلة سياسيا كما يتصور الكثيرون لكنها رمزية وقد تفيد أو تنبه، وهي تبدو لي أحيانا كصورة كاريكاتيرية، ناقدة، لا أكثر، كما أضفت تحذيرا أن تكون غاية مرادنا هو أن ننضم إلى هذه الحركة أو نصدق لتلك، وأيضا لا يحق للمعتزلين أن يفرحوا بموقفهم وهم جلوس على مكاتبهم يشجبون ما لا يشاركون فيه، لا أذكر ألفاظ حوار الإذاعة البريطانية حرفيا، لهذا سوف أكمل تعتة اليوم بعيدا عن نص الحديث، هي فقط من وحيه.

من قديم ونحن - النفسانيين- نختار في تعريف محدد للذكاء، حين بدأت تلك المحاولة وأنا اكتب كتابا مدرسيا بالعربية في أوائل الستينات وجدت أن أغلب المراجع تشاركني الصعوبة والخيرة حتى أن أحدها عرّف الذكاء - ربما سخريّة- كما يلي: "الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء"، وفي نفس الوقت وجدت نقدا لهذه الاختبارات يقول "إنها لا تقيس إلا نتائجها" وليس الذكاء، ساعتها قلت بسخريتنا المصرية إذن الذكاء هو الذكاء، ربما قلت ذلك من وحي، ما جاء في قاموس المرحوم أحمد أمين عن طرائف العادات الشعبية المصرية لشاعر ساخر يتحدى إمكانية التعريف قائلا!!

الأرض أرضٌ والسماءُ سماءُ
والماء ماءٌ والهواءُ هواءُ
والخلو حلوٌ والمرارة مرّةٌ
وجميع أشياء الوري أشياء

كل الرجال على العموم مذكر
أما النساء فكلهن نساء
قلت لنفسي وجدتها: إذن من حقنا أن نضيف
والفهم فهم والغباء غباوة
والفكر فكراً والذكاء ذكاء
لماذا يمشرون الطب النفسي - مع قصوره هذا- في تصنيف
تصرفات الحكومة "والحركات"؟!

سألتني المذيعة عن رأيي في غياب الحكومة، فقلت لها ربما
يكون ذلك نعمة من الله على هذا الشعب المسكين، لأن تباطؤ
المسئول الغيبي في أدائه العقلي قد يقلل من اندفاعه، وهذا
يسمح لبعض الأمور أن تحل نفسها بنفسها، بدلا من أن يندفع
بذكائه المتواضع أو المزعوم، فتخرب أسرع، قالت إن هذه
الحركة الجديدة تشير إلى أن تصرفات الحكومة الأخيرة (العلاوة
تلحسها قرارات رفع الأسعار) تتصف بالغباء، ما رأيك؟

قلت لها إن من أهم محكات الذكاء هي: "القدرة على الربط
بين العلاقات الأساسية والاستفادة من الخبرات السابقة ثم
التصرف ببعد نظر"، وأظن أن الحكومة لا تتمتع بأى من هذه
الميزات الثلاثة، وخاصة "التصرف ببعد نظر".

فعدت المذيعة تحدد السؤال عن رأيي في التصرف الأخير
(العلاوة فلحسها) لأنه يبدو أن هذا بالتحديد كان وراء
ظهور هذه الحركة الاحتجاجية الطريفة، فرددت بما تيسر.

بعد أن انتهى الحديث فكرت من جديد في هذا التصرف
(العلاوة فلحسها) ورحت أستبعد أن يتصرف مسئول سياسى عاقل
بمثل هذا التصرف الذى يبعده عن الناس، ويفضح عشوائيته
وتخبطه، ويقلل من شعبيته إن كانت له شعبية، بل وقد يعجل
بنهايته إن كانت هناك آلية أصلا لاحتمال ذلك، لم أتصور أن
هذا التصرف يأتيه عاقل مهما بلغ تواضع ذكائه، فمن يا
ترى دفع بالحكومة إلى فعل ذلك؟

خطر ببالي أنه ربما يكون وراء هذا التصرف مراكز قوى ذكية
وخبينة أرادت أن توقع بالحكومة، فأوحت لها أن تتصرف هكذا،
فاستجابت الحكومة بسذاجة ليس فيها رائحة السياسة، لتقع من
طولها (إذا كان ذلك واردة أصلاً!!) ولا أحد يسمي عليها.

نصحتي للحكومة أن تبحث في مطبخ قراراتها عن هذا الدخيل
الذى استعبطها هكذا فأوقعها في شر تصرفها وهى ماضية في
تصرحات خطابية وبيانات مُفرغة من أى منطوق، نعم أنصحها ألا
تكتفى بالخذر من تصرفات غبية لبعض القائمين على اتخاذ
القرار، عليها أن تنتبه أصلا إلى احتمال خبث المتغابين المندسين
في مطبخ صنع القرار، ربما يكونون وراء مثل هذه القرارات

أقول ذلك وأنا أتذكر قول الشاعر الآخر:
ليس الغيُّ بسيدٍ في قومه
لكن سيد قومه المتغاي!!